

امرأة مصرية، تنزع مظاهره

في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي

بقلم

دكتور عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الإسلامي

ورئيس قسم التاريخ

بآداب عين شمس

كان النيل دائماً شغل مصر الشاغل؛ على مدى الزمن؛ ولم تكن تستطيع أبداً أن تتجاهل فيضانه؛ بل كانت تنتظره بفروغ صبر إلى أن يوافي في كل عام؛ وترفع مياهه إلى منسوبها الكافي؛ لكي تسقي أرض مصر، وبالتالي تستقبل البلاد الخير؛ عندئذ يحتفل المصريون احتفالاً كبيراً بوقاء^(١) النيل.

وقد اتخذ هذا الاحتفال مظاهر متعددة؛ فقد يماً اعتبر النيل إلهاً كبيراً، وقيل إن المصريين كانوا يعمدون إلى دمية أو جارية بكر، من أجل فتيات مصر؛ ليلقوها في النيل^(٢)، بعد أن يلبسوها أفضل الحلل والثياب؛ كقربان لهذا الإله؛ حتى يفيض بخيره على البلاد. فلما جاء العرب، كانوا يكتفون في احتفالهم، بإلقاء بطاقة في النيل، كُتبت فيها بعض الصيغ الدينية، واستمر ذلك إلى أن جاء الفاطميون؛ فأصبح الخليفة يركب بهيئة الموكب الرسمية العظيمة، وسط ابتهاج الشعب ومرحه؛ ليعطّر يديه المقياس في الروضة؛

وهو ما كان يعبر عنه بموكب : تخليق المقياس^(٢) ؛ أى دهانه بالطيب
« بالخلق » .

ومع ذلك ؛ فإن النيل كثيراً ما كان يقصر^(٤) عن ارتفاعه العادى ؛
فما يترتب عليه أن لا تجد مصر المياه اللازمة لسقي أرضها ؛ فتشرق الأراضي
أو لا تزرع . وقد يزيد الأمور استفحالاً ؛ سوء تدبير الحكام وغفلتهم^(٥) ،
عن علاج الأحوال ؛ مما يؤدي إلى وقوع المجاعات .

فيذكر المؤرخ المقرئ في كتابه : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ،
الذى يتناول تاريخ المجاعات في مصر ؛ أن مجيء الفاطميين إلى مصر ، كان
سببه في الواقع الضنك من المجاعات ؛ نتيجة لتقصير النيل ، بحيث أن
المصريين كاتبوا المعز لدين الله الفاطمي^(٦) ؛ ليحضر إلى مصر ؛ لكي ينقذهم
منه . فلما وصل ، اتخذ إجراءات سريعة ؛ لتخفيف حدة المجاعات ، منها
حمل الغلات معه من المغرب ؛ كما منع^(٧) الفداء عن إرتفاع النيل قبل الوقت ؛
لما يجدنه ذلك من بلبلة وقلق ؛ بمجرد الإحساس بأن النيل قد لا يصل إلى
مستواه في المقياس ، وما يترتب على ذلك من الإلتجاء إلى التخزين ،
وارتفاع الأسعار ، ولإنعدام الأقوات .

كذلك كان الحكام بأمر الله الفاطمي ، هو الآخر توافاً إلى أن يقطع
دابر المجاعات من مصر ؛ حينما سمع أن عالماً في العراق ، اسمه أبو علي
ابن الهيثم^(٨) ، نبغ في الهندسة ، وأنه قال : لو كنت في مصر لعملت في نيلها
عملاً يحصل به النفع ، في كل حالة من حالاته ، من زيادة ونقص . فأرسل
الحاكم إليه جملة من مال ، وحثه على المجيء إلى مصر ، فلما وصاها ، خرج
الحاكم بنفسه للقائه ، وأمر بانزاله وأكرمه ، وسأله مع جملة من الصناع
في طول الإقليم المصري ، حتى وصل أسوان . ولكن ابن الهيثم ، لم يستطع
أن يقوم بشيء — بسبب طبيعة أرض أسوان الجرانيتية — واعتذر عن

عجزه ؛ فأبقاه الحاكم عزيراً مكرماً . فلمل هذا الذي كان يقوله ابن الهيثم عن نيل مصر ؛ هو أول تفكير لإقامة خزان أو سد عالٍ في أسوان ؛ لحجز المياه وقت زيادة الفيضان أو نقصانه !!

وكانت الدولة تقدر أن إبعاد شعب المجاعة عن مصر؛ لا يتأتى إلا بتخزين الحبوب . فخصصت في ميزانيتها كل عام ، مائة ألف دينار (خمسين ألف جنيه) ؛ لشراء محصول القمح من الزراع ؛ فكانت تجمعه في البيادر ، أى الأماكن التى يكوم فيها ، ثم ينقل إلى الخزائن السلطانية ؛ فكان هذا الإحتياطى ، فى وقت الحاجة ، يوزع على الطحانين والخبازين . كذلك ، كان للدولة متاجر تملكها لبيع الغلال ، ودكاكين لبيع الخبز ؛ بقصد تثبيت سعرهما ، أو ترخيصهما ؛ كما أنها كانت تعمل على تثبيت أسعار المواد الغذائية الأخرى ؛ بإقامة سعر لكل شئ ؛ حتى لا يتلاعب التجار بالأسعار .

ولكن النيل عاد إلى تقصيره سنوات متتالية ، فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى^(١) ، وزاد من استفحال الأحوال ، لإضطراب أمور الدولة فى عهده ، بتغيير الوزراء ، حتى بلغ عددهم أربعين وزيراً فى تسع سنوات ، وسها عن تخزين الإحتياطى من القمح ؛ إلا ما يحتاجه القصر ومطبخ الخليفة وحواشيه لا غير ، وخزنت بدله مواد أخرى ، مثل الصابون والخشب ، بقصد الإنجار فيها ؛ لزيادة الفائدة . وقد سعى الخليفة إلى علاج نقص الغلال ، بالدخول فى مفاوضات مع مملكة الروم ، مع عداوتها لخلافته ؛ فأرسل إليهم القاضى أبا عبد الله القضاعى ؛ بقصد استيراد أربعمائة ألف أردب من القمح ؛ ولكن الروم رفضت ؛ مما جعل البلاد لا تجد ما تحتاجه من غلال .

وحدث نتيجة لذلك مجاعة شديدة ، عرفت باسمه : الشدة المستنصرية^(١٠) ، استمرت من ١٠٦٥/٤٥٧ إلى ١٠٧١/٤٦٤ ، وُصفت بأنه لم يحدث مثلها منذ

أيام يوسف الصديق . وزاد من خطورتها أنه صاحبها انتشر الوباء والأمراض ، ولا سيما الجدري ؛ حتى مات منه كثيرون ، وقبل لأنه فني بسببه ثلث أهل مصر . فأفقرت الأسواق ، وكان لا يرى بها أحد ، كازلت الجند للأرض لزراعتها ؛ لعدم وجود الفلاحين ، ونقص عدد القرى من ٣٨٣٤ إلى ٢٠٦٢^(١١) .

فتعذر وجود الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، فكان رغبة العيش وحده ، يباع بـ ١٥ ديناراً^(١٢) (٧٧ جنيه) ، وأردب القمح بـ ١٠٠ دينار (٥٠ جنيهاً) . وقد اضطر المسيرون من الناس ، إلى بيع كل ما عندهم ؛ لقاء كسرة من الخبز ؛ حتى أن حارة سُميت بحارة الطبق ؛ إذ بيعت فيها عشرون داراً لقاء طبق من الأكل^(١٣) . وباع الخليفة نفسه ، كل ما في قصره ؛ بعد أن كانت خزائنه مكدسة بالأموال والتحف ، وكان يقنع بأكل رغيين في اليوم ؛ وأن أفراد أسرته نزحوا إلى المناطق المجاورة ، وتشقتوا في البلاد . وقيل إن رجلاً ذهب إلى الحمام ؛ فطلب صاحب الحمام من الرجل أن يخدمه سعد الدولة أو نحر الدولة أو عز الدولة^(١٤) ؛ حيث أنهم كانوا يسمون إلى الحصول على ما يسك رمقهم .

وقد اضطر الناس إلى أكل الميتة من الكلاب والقطط ، والبحث عن شرائها ؛ حتى يبيع الكلب بـ ٥ دنانير (٢١ جنيه)^(١٥) ، والقط بـ ٣ دنانير (١٦ جنيه) . وقيل — للبالغة أو حقيقة — إنه من شدة الجوع ؛ كان طائفة من الناس ، يجلسون على السقائف ، وبأيديهم حبال فيها كلاب — خطافات — فإذا مر بهم أحد من الناس ، ألغوا عليه تلك الحبال ، وفشلوه بتلك الكلاب ، في أسرع وقت ؛ فإذا صار عندهم ذبحوه في الحال ، وأكلوه بهظامه^(١٦) ، أو شربوا

لحمه وأكله، وعُرف الزقاق الذى يجلسون فيه بزقاق القتل ، ولكن الدولة تعقبتهم ، وعملت على شغلهم .

فى هذه الظروف الصعبة؛ قامت امرأة مصرية^(١٧)، يبدو أنها كانت على شىء من الثراء؛ إذ وُصفت بأنها من « أرباب البيوتات »، كانت قد باعت عقداً لها، يساوى ألف دينار؛ لتحصل على قليل من الدقيق . ولكن هذا الدقيق نهبه الناس، وهى فى الطريق، واضطرت هى أن تأخذ منه ما يعجز قرصة؛ فأخذت هذه القرصة، ووقفت عند قصر الخليفة، فى مكان مرتفع، ورفعتها فى يدها؛ بحيث يراها الناس، ونادت بأعلى صوتها ساخرة: يا أهل القاهرة، ادعوا مولانا المستنصر، الذى أسعد الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره؛ حتى تقوِّم على هذه القرصة بألف دينار .

فلما سمع المستنصر بذلك، امتنع له أشد الامتناع؛ وإن دفعه أن يفعل شيئاً . فدعا بتجار القمح والخبازين والطحانيين فى مجلس عظيم، وهددهم بقطع الرقاب؛ إذا لم يظهر المخزون من الغلال؛ فظهرت الغلال فى الأسواق . كذلك شاء حصن حفظه، أن تدارك الله الخلق؛ وعاد فيض النيل إلى الحد المرموق، وتوقفت الأوبئة من ذاتها . بل إن أهل الأندلس المسلمين^(١٨)، أرسلوا إلى المصريين سفناً مملوءة بالطعام والغلال، لمساعدتهم فى محنتهم؛ فأعاد المصريون بدورهم هذه السفن محملة بالذخائر الحربية؛ كي يستطيع الأندلسيون الاستعانة بها فى كفاحهم ضد الأسبان .

وبعد؛ فإن التاريخ سوف يذكر لمصر فى العصر الحديث أن السد العالى فى أسوان، كان تحفة قماً لحلم سابق، وأنه لم يتم إلا بعد أن حشد له شعب مصر كل موارده وطاقتها، وتمسكن من أن يبقربطن الجبل الجرائتى؛ ليبعد عنه شبح المجاعة نهائياً، سواء ارتفع النيل أو قصر؛ وهى المجاعات التى لاحقت مصر منذ تاريخها القديم .

الحواشي

- (١) صبح الأعشى ، ٣ من ٥١٦ س ٥ .
 (٢) الخطط ، ١ من ٥٨ س ١٦ — ٢٠ .
 (٣) يتفصيل : نفسه ، ١ من ٤٧٦ — ٤٧٧ ؛ صبح الأعشى ، ٣ من ٥١٦ — ٥١٨ ؛
 انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ من ١٠٤ وما بعدها .
 (٤) لغاية الأمة ، ١٩ .
 (٥) نفسه ، ٤ من ٣ .
 (٦) انماط الحنفا ، ١٤٦ — ١٤٧ ؛ انظر ، ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ،
 من ٣٦٢ .
 (٧) الخطط ، ١ من ٩٧ — ٩٨ .
 (٨) ابن العبري ، ٣١٦ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، الحاكم بأمر الله ،
 من ٦٤ — ٦٥ .
 (٩) ابن ميسر ، ٦ — ٧ ؛ لغاية ، ١٨ — ٢٠ ؛ انظر . ماجد ، المستنصر بالله ،
 من ١٥٥ — ١٥٦ .
 (١٠) لغاية ، ٢٤ وما بعدها .
 (١١) الكنائس والآديرة ، ١٠ وما يليها ؛ الخطط ، ١ من ١١٧ س
 ١٩ — ٢٠ .
 (١٢) ابن اياس ، ١ من ٦٠ .
 (١٣) كنز الدرر ، ٦ ورقة ٢١٥ .
 (١٤) النجوم ، ٥ من ١٦ س ٦ — ٩ .
 (١٥) ابن اياس ، ١ من ٦٠ .
 (١٦) لغاية ، ٢٤ ؛ الخطط ، ٢ من ١٤١ .
 (١٧) لغاية ، ٢٥ — ٢٦ .
 (١٨) الحلل الموشية ، ٧٢ ؛ انظر . مختار العبادي ، الصقالبة ، مجلة معهد مدريد ،
 ١٩٥٣ ، ٢٦ حاشية (٤) .